التراث وقضايا العصر
مقدمة أدب الكاتب لابن قُتيبة
ت ٢٧٦ هـ نموذجًا

أعدته

فاطمة محمد محمد المهدي

قسم: البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر الشريف

من ٣٧٥ إلى ٤٣٨

التراث وقضايا العصر ، مقدمة أدب الكاتب لابن قُتيبة ت ٢٧٦ هـ ُنموذجًا

فاطمة محمد محمد المهدي
قسم: البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات –
جامعة الأزهر الشريف ،، سوهاج ، مصر .
الإيميل الجامعي:fatimamahdi.79 @azhar.edu.eg

ملخص البحث:

التراث ذاكرة الأمة ،لأنه يسجل حياتها وأيامها ومفاخرها ومآثرها وما تعرضت له من نكبات و أحداث ،ولا تستطيع أمة أن تجهل تراثها؛ لأنها بذلك تصبح أمّة بلا جذور تعتمد عليها ،في بناء حضارتها ومستقبلها ، وكما أن هناك أحداثا تؤثر في حياة الأمم ،فهناك شخصيات تؤثر في حياة الشعوب بأعمالهم العظيمة وإنجازاتهم القيمة من هذه الشخصيات النّاقِدُ الأديب (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المعروف بـ(ابن قتيبة) ت ٢٧٦هـ)، فقد ألف كُتُبًا كان لها كبير الأثر في حياة الكتاب والأدباء ، ومن أهم هذه الكتب كتاب (أدب الكَاتِب)أو(أدب الكُتَّاب)كما يسميه البعض، وقد بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة بين فيها أهم الصفات التي يجب أن يتحلى ويتصف بها من يريد الشروع في الكتابة، والكتابة في عصره تعني الإعلام في عصرنا سواء أكان مسموعًا أو مرئيًا أ ومقروءًا بأنواعه من كتب ومجلات ، وبحوث علمية وعلماء ومعلمين ، ومؤسسات علمية وغير ذلك ، وتراثنا العربي عامة وهذا الكتاب خاصة زاخرٌ بالكنوز

والنفائس من فهم لإعجاز القرآن الكريم ونقد للشعر العربي ، وأصول للتربية الإسلامية ،وأسس للبحث العلمي ، وتناول ومعالجة لقضايا المجتمع العصري...وحوت هذه المقدمة الكثير من القضايا المعاصرة التي يعيشها المجتمع العربي منها: المؤسسات التعليمية، وعدم قدرتها على أداء مهمتها، ازدراء العلماء والتحقير من شأنهم ،وعدم إجلالهم مِنْ قِبَل القائمين على الأمر، وذوي السلطة.- أصحاب السلطات وانغماسهم في ملذات الحياة ، وانصرافهم عن الاهتمام بأمور الرعية ،لجرأة على الفتوى بغير علم ، الإعلام ودوره في المجتمع .

الكلمات المفتاحية: التراث ، قضايا العصر ، مقدمة ، أدب الكاتب ، ابن قُتيبة .

Heritage and contemporary issues, an introduction to the writer's literature by Ibn Qutayba, 276 AH, as a model

Fatima Muhammad Muhammad al-Mahdi
Department: Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls - Al-Azhar University, Sohag, Egypt
email: fatimamahdi.79 @azhar.edu.eg

Abstract :

Because it becomes a nation without roots that depend on it, in building its civilization and its future, and just as there are events that affect the lives of nations, there are personalities that affect the lives of peoples with their great deeds and valuable achievements. Among these personalities is the literary critic (Abu Muhammad Abdullah bin Muslim bin Qutayba al-Dinuri, known as (Ibn Qutayba) d. Literature of writers (as some call it). Ibn Qutayba began his book with an introduction in which he clarified the most important qualities that must be possessed and characterized by those who want to start writing, and writing in his era means the media in our time, whether it is audio or visual or readable in all its

types such as books and magazines, scientific research, scholars and teachers, scientific institutions and so on. Arab poetry, foundations for Islamic education, foundations for scientific research, and dealing with and addressing the issues of modern society... This introduction contained many contemporary issues experienced by Arab society, including: educational institutions, their inability to perform their mission, contempt and humiliation of scholars, and lack of respect for them by those in charge of the matter, and those with authority. Media and its role in society.

Keywords: heritage, contemporary issues, introduction, writer's literature, Ibn Qutayba.:

مقدمة:

الحمد لله الذي أشرقت بنوره الظلمات وقامت به الأرض والسموات، فله الحمد حتى يرضى وله الشكر على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، والصلاة والسلام على خير الأنام محمد المصطفى، وصحبه أُلي الفضل والوفا، ومن سار على نهجه واقتفى ، وبعد..

فمن منن الله الظاهرة ، ونعمه السابغة أن جعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وجعل ديننا هو الإسلام، ودستورنا هو القرآن ،ولغتنا لغة أهل البيان و الجنان ، ورسولنا سيد ولد عدنان ، خير من نطق بالعربية ، وأفصح أهل الجزيرة العربية ، الذين تركوا لنا تراثا ليكون لنا ضياءً ونبراسًا نهتدي بهديه ، ونحتمي به من عوادي الزمن ، فقد تركوا لنا تراثًا زاخرًا في كل أنواع الفنون والمعارف لو حافظنا عليه و وعيناه جيدًا لكنا في مصاف الدول المتقدمة وعلى غرة ركب الحضارة .

فالتراث ذاكرة الأمة لأنه يسجل حياتها وأيامها ومفاخرها ومآثرها وما تعرضت له من نكبات و أحداث ،ولا تستطيع أمة أن تجهل تراثها؛ لأنها بذلك تصبح أمّة بلا جذور تعتمد عليها في بناء حضارتها ومستقبلها.

وكما أن هناك أحداثا تؤثر في حياة الأمم ،فهناك شخصيات تؤثر في حياة الشعوب بأعمالهم العظيمة وإنجازاتهم القيمة من هذه الشخصيات النّاقِدُ الأديب (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المعروف بـ (ابن قتيبة) ت ٢٧٦هـ)، فقد ألف كُتُبًا كان لها كبير الأثر في حياة الكتاب والأدباء ، ومن أهم هذه الكتب كتاب (الشعر والشعراء) ، و كتاب (تأويل مُشكل القرآن) وكتاب (أدب الكَاتِب)أو(أدب الكُتَّاب)كما يسميه البعض،

وهو الكتاب محل الدراسة، وقد بدأ ابن قتيبة كتابه بمقدمة بين فيها أهم الصفات التي يجب أن يتحلى ويتصف بها من يريد الشروع في الكتابة.

والكتابة في عصره تعني الإعلام في عصرنا سواء أكان مسموعًا أو مرئيًا أ ومقروءًا بأنواعه من كتب ومجلات ، وبحوث علمية وعلماء ومعلمين ، ومؤسسات علمية وغير ذلك .

وتراثنا العربي عامة وهذا الكتاب خاصة زاخرٌ بالكنوز والنفائس من فهم لإعجاز القرآن الكريم ونقد للشعر العربي ، وأصول للتربية الإسلامية ،وأسس للبحث العلمي ، وتناول ومعالجة لقضايا المجتمع العصري...

وحوت هذه المقدمة الكثير من القضايا المعاصرة التي يعيشها المجتمع العربي **ومن أهمها:**

- **المؤسسات التعليمية،** وعدم قدرتها على أداء مهمتها.
- **ازدراء العلماء والتحقير من شأنهم** ، وعدم إجلالهم مِنْ قِبَل القائمين على الأمر، وذوي السلطة.
- **أصحاب السلطات وانغماسهم في ملذات الحياة،** وانصرافهم عن الاهتمام بأمور الرعية.
- **الجرأة على الفتوى بغير علم .**
- **الإعلام ودوره في المجتمع .**

والكثير من القضايا التي لا يتسع لها المجال للسرد هنا.

وسوف نتناول بعض ما ذكره ابن قتيبة من قضايا تهم المجتمع ، وكيف وضع مقومات للإصلاح من شأن المجتمع بالنظر في هذه القضايا في محاولةً منا لربط التراث لخدمة قضايا المجتمع، وذلك في ورقة عملٍ بحثية موضوعها :

(التراث وقضايا العصر)

مقدمة أدب الكاتب لابن قُتيبة ت ٢٧٦ نموذجًا.

وجاء ذلك في مقدمة وتمهيد ومحورين وخاتمة .

- **المقدمة:** ذكرت فيها موضوع البحث، وأهميته، والمنهج الذي سرت عليه .
- **التمهيد** : جاء فيه التعريف بابن قُتيبة،ومكانته العلمية والأدبية وأهم مؤلفاته ،واسم كتابه ومضمونه وأهم العلماء الذين قاموا بشرحه.
- **المحور الأول:** جاء فيه تعريف التراث ، ونشأته ، وأهم نظرياته ، وموقف العربي منه ، وأهم الشروط التي يجب توافرها لتحقيق النهضة في التراث.
- **المحور الثاني:** النظريَّات والقضايا المعاصرة التي تناولها ابن قتيبة في مقدمته.

وجاء اختياري لهذا الموضوع نظرًا لأهمـــية التراث العربي ، وأهمية المحافظة عليه عن طريق التأصيل والتمسك به وربطه بواقع حياتنا اليومية والتصرف من خلاله، ومحاولةً منا في إيجاد حلولٍ لقضايانا المعاصرة في تراثنا فهو هويتنا وسندنا، ومرجعيتنا إذا ضاقت بنا السُبل ، وعييت منا الِحيل ، وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس حين قال: "لن

ينصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"[١]، وكأنّي أسمع جهرًا قويًّا في صدى ألفاظه يخرج من جهارة وأصوات حروفه القوية المستعلية الشديدة ينتصر على همس الحروف واستفالها ولينها، وهو ينادي إلى رجوع الأمة إلى تراثها وماضيها.

وها نحن نستجيب لهذا النداء القوي الصارخ رغبةً منًّا في إحياء التراث ، بالنظر فيه ، ومداومة قراءته ومذاكرته، والاهتداء بهديه، لعلنا نجد فيه حلولًا لحاضرنا ، نستطيع بها ربط الماضي بالحاضر للعبور نحو المستقبل .

ثم جاءت **الخاتمة** بعد ذلك وفيها إثبات لنتائج البحث ، وثبت لأهم **المصادر والمراجع** .
وأرجو أن أكون وفقت في ذلك،

{وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب} سورة: هود آية ٨٨

[١]وردت هذه المقولة في كتاب المبسوط للقاضي اسماعيل بن إسحاق الجهضمي المالكي ت ٢٨٢هـ/ ٢/ ٨٨، وينظر اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٧٦٢، ٧٦٣ ، طبعة مكتبة الرشد.

التمهيد:

التعريف بابن قتيبة:[١]

ابن قُتيبة هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد في أواخر خلافة المأمون في الكوفة، ولذلك يقال :الكوفي، أو في بغداد سنة٢١٣هـ.

وهو عالم لغوي نحوي، ولي قضاء الدينور ،ولذلك يقال الدينوري.

توفى في بغداد سنة٢٧٦هـ-٨٨٩م .أو في سنة ٢٧٠هـ-٨٨٣،على خلاف بين العلماء.

لقي علماء اللغة العربية على اختلاف مذاهبهم، وأخذ عن أئمة اللغة والأدب الكثير كما أخذ عن غيرهم في سائر العلوم والمعارف، مستوعبًا ذلك درسًا وفهمًا وحفظًا، مستعينًا بما رُزِقَ من ذهن صافٍ، وذوق راقٍ ،وفكرٍ منظم، أدى إلى نتاج علمي نافع في مؤلفات متنوعة في شتى مناحي العلم ،متناولًا فيه جميع معارف عصره، مُنَبِّهًا إلى قضايا مُستقبلية من ضعفٍ علمي، وتشتتٍ فكري ، وفسادٍ للعقول، وغلاءٍ للأسعار، وازدراءٍ للعلماء ،وتهميشٍ لذوي الكفاءات ، وانتشار المحسوبية والوساطات.

---

[١] أفدت من :إنباه الرواة على إنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم -دار الكتب المصرية-١٩٥٥م ج ١٤٣/٢-١٤٧،بغية الوعاة للسيوطي تحقيق ممد أبي الفضل إبراهيم ٦٣/٢-٦٤ مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٥م ،تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر(المقدمة)،تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٧٠/١٠-١٧١-طبعة القاهرة ١٩٤٨م .
تفسير رسالة أدب الكاتب للإمام أبي القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي ت ٣٤٠هـ،حققه وعلق عليه د/عبد الفتاح سليم ص٨,٧ القاهرة -معهد المخطوطات العربية - ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .،تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني ،د/شوقي ضيف ص ٦٢٣,٦١١,٥٢٠،دار المعارف ١٩٩٦م.

نهج في كتبه منهج الجاحظ ت ٢٥٥هـ[١] ، وأبي حنيفة الدينوري ت ٢٨١هـ[٢]، وهما من العلماء البارزين في عصره، الذين كان همهم أن يجعلوا اللغة والشعر والأخبار في متناول الكُتَّاب الذين بدأ يذيع صيتهم ويعلوا شأنهم إبان دولة بني العباس، وهذا ما يمثله الإعلام في عصرنا الحاضر ، بما فيه من علماء ومعلِّمين وإعلاميين، وشعراء وأدباء، ووسائل اتصال حديثة مسموعة أو مقروءة أو مرئية.

وكان للكتاب في عصر ابن قتيبة شأن ونفوذ يعدل سلطان الخلفاء في تصريف أمور الدولة.

كما أن للإعلام بوسائله وتقنياته الحديثة سيطرة وهيمنة في عصرنا الحاضر، على العقول والأفكار، وتربية الجيل.

وكان ابن قتيبة من العلماء الأعلام في عصره فقد كان "صادقا فيما يرويه، عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ،كثير التصنيف والتأليف ،وكانت كتبه من الكتب المرغوب فيها، نظرًا لعلمه باللغة والنحو والشعر وتفننه في العلوم[٣]"

---

[١] أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري أديب عربي من كبار أئمة الأدب العربي في العصر العباسي من مؤلفاته البيان والتبيين ، والحيوان ، والبخلاء (١٥٩-٢٥٥هـ).انظر سير أعلام النُبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الجزء١٣/ ٥٢٨، الطبعة الثالثة عشر.

[٢] أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري نسبة إلى الّدينور وهي بين همدان وكرمنشاه في إيران ، وهو عالم مسلم ، وكان نحويا ولغويّا ومهندسًا وفلكيّا أخذ عن علماء البصرة والكوفة ت ٢٨٢، انظر قاموس دار العلم الفلكي لمؤمن عبد الأمير – بيروت – لبنان – دار العلم للملايين ٢٠٠٦م.

[٣]إنبا ه الرواة للقفطي٢/١٤٣-١٤٧،بغية الوعاة للسيوطي٢/٦٣-٦٤

له مؤلفات ومصنفات ممتعة ومفيدة. تناولت شتى معارف عصره. منها:

- الشعر والشعراء وطبع عدة مرات ؛ وأحدث طبعاته بتحقيق أحمد محمد شاكر سنة١٩٦٦م ،ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت.
- الإمامة والسياسة :طبع عدة مرات بمصر.
- الأشربة :طبع بدمشق تحقيق محمد كرد علي.
- تأويل مشكل القرآن جمع بينه وبين غريب القرآن وطبع بمصر تحت اسم "القرطين" كما قام بتحقيقه الأستاذ سيد صقر.
- تفسير غريب القرآن تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، وغير ذلك من الكتب والرسائل التي لا يتسع المجال لذكرها .
-

وقد أسهمت مؤلفاته الأدبية واللغوية في إنما ء المكتبة العربية وإغنائها ، وكان ابن قتيبة أيضا من الذين دافعوا عن الكتاب والسنة ضد التيارات الفكرية والنزعات الفلسفية التي سادت في عصره ،"وكان يغلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين ،و حكى في كتبه عن الكوفيين ،وكان صادقا فيما يرويه عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه كثير التصنيف والتأليف"[١]

يقول النووي عن عدد مؤلفاته" نسيت عدد مؤلفاته وأظنها تزيد على ستين مصنفا في أنواع العلوم"[٢]

---

[١] انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٢٠٠

[٢] تهذيب الأسماء واللغات للنووي٢/٢١٨

أما العلوم الإسلامية – عدا ما تقدم – وعلوم الأدب فقد كان مبرزا فيها مع جودة قريحة وصحة دين ،وقد كان صديقا وزميلا لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٥هـ ، وكانا يقرآن كتب الجاحظ ت٢٥٥هـ معا ، ويراجعان معا ما كتبا ،وكان هؤلاء العلماء يرون أن دراسة اللغة وآداب العرب وأخبارهم وسيلة لغاية نبيلة هي فهم كتاب الله وحديث رسوله[١].

يقول البطليموسي شارح أدب الكاتب أن ابن قتيبة :"قصد من دراسة الأدب غرضين :أدنى وأعلى، فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والمتمهر فيه قوة يقدر بها على النظم والنثر، والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله –صلى الله عليه وسلم–وصحابته ،ويعلم كيف تنبئ الألفاظ الواردة في الكتاب والحديث".[٢]

---

[١] ولعلَ في قراءتهما ومراجعتهما معًا يندرج تحت ما سَمي حديثًا بالتعلم التعاوني أو الجماعي ،وعدّوه من مُبتكرات العصر في التعليم، وفي الحقيقة ما هو من مُبتكرات العصر ، وما هو بحديث ، فهو قديم قِدم أسلافُنا و إسلامنا وقرآننا ورسولنا، فهو يندرج تحت مظلة التعاون في الإسلام ، قال تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْوَى...}سورة المائدة آية ٢، وكان الرسول –صلى الله عليه وسلم –يعلم ويُعلِّم أن التعاون في العلم والعمل أسرع وأجودَ وأضبط؛ لذلك كان يُكلف كتّاب الوحي الصحابة –رضوان الله عليهم– ، بالتعاون فيما بينهم في كتابة الوحي ، فكان أُبَيّ بن كعب، ومعاوية بن أبي سُفيان، وزيد ابن ثابت ،يتعاونون على كتابة الوحي فيما بينهم، ويراجعونه ، ويدونونه، فقد اقتدى العلماء السابقين ، وتأسوا بالمصطفي عليه الصلاة والسلام والتابعين من بعدهم ، لذلك نرى أن الله عز وجل بارك لهم في علمهم ، وجنّبَهُم الزلل والخطأ، فما نراهم إلا موفقين ، وما زَلّوا وما ضلُّوا، وهذه قضية يُوجه إليها أصحابها من التربويين المتخصصين في طُرق التدريس ووسائل تكنولوجيا التعليم.

[٢] الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ص ١٤

وحبذا لو أخلصنا النية لله نحن –كمعلمين ومتعلمين – وجعلنا هدفنا من دراسة العلم هذين العرضين ، وكفى بذلك فخرًا وعلمًا.

وكان الأدب على يد ابن قتيبة يشمل كل علوم اللغة، ومنها النقد والبلاغة، وهذا الغرض الأعلى الذي جعله ابن قتيبة للأدب هو الذي جعله العلماء بعده أحد الأهداف السامية لدراسة علوم البلاغة، وكتاب (أدب الكاتب)، الذي اخترنا منه المقدمة لتكون مجال البحث ، في الحديث عن قضايا العصر ، نشره جرينرت في ليدن سنة ١٩٠٠م ،وأحدث طبعة له تمت في مصر سنة ١٩٦٣م بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

ويتكون كتاب "أدب الكاتب من: مقدمة وأربعة أقسام:

القسم الأول: "كتاب المعرفة" ويتكون من ثلاثة وستين بابا.

القسم الثاني: "كتاب تقويم اليد "ويتضمن سبعة وأربعين بابا.

القسم الثالث: كتاب تقويم اللسان "ويتوزع في خمسة وثلاثين بابا.

القسم الرابع: كتاب الأبنية وقسمه إلى أربعة موضوعات:

أ- أبنية الأفعال ب- معاني أبنية الأفعال

ج- أبنية الأسماء د- معاني أبنية الأسماء.

ومن العلماء الذين شرحوا كتاب (أدب الكاتب):

- أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليموسي ت٥٢١هـ،وهو كتاب محقق ومطبوع.
- أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي ت٥٣٩هـ ، وهو مطبوع ، كما شرحه أيضا إسحاق بن إبراهيم القرابي ت٣٥٠هـ ، وأبو علي الحسن بن محمد

البطليموسي ت ٥٧٦هـ،وأحمد بن داود الجذامي ت ٥٩٨هـ،وسليمان بن محمد الزهراوي إلا أن هذه الشروح لم تطبع.

أما من شرح مقدمة الكتاب فقط فهم :

- أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ت٣٤٠هـ،وهو كتاب مطبوع ومحقق تحقيق د. عبد الفتاح سليم ،طبعة معهد المخطوطات العربية.
- أبو بكر محمد بن عبد العزيز القوطية ت ٣٦٧هـ،مخطوط.
- عبد الباقي بن محمد ت ٣٩٠هـ،ذكر بروكلمان أنه في ليبرج أول ٨٨٧.
- مبارك بن فاخر النحوي ت٥٠٠هـ وهو مفقود.

مضمون مقدمة أدب الكتاب وسبب تأليف ابن قتيبة لهذا الكتاب:

امتد نفوذ الكتاب في عصر ابن قتيبة وعلا شأنهم حتى أصبح شأن الكتاب يعلو شأن الحكام ،حتى أن من لم يكن أهلا للكتابة أقبل عليها نظرا لما لها من مكانة عند المجتمع رؤساء ومرؤوسين.

فرأى ابن قتيبة ذلك فاستشاط غضبا ورأى أن يُقَوِّمَ من هذه الحرفة ،ويُبَصِّرَ أصحابها بما يجب أن يكونوا عليه من ثقافة لُغوية ووعي أدبي وإلمام بسائر المعارف والفنون التي تصقله ككاتب كي يصبح من الكتاب المعدودين في عصره والمشهود لهم بالكتابة ،والذين هم بحق أهل للإجلال والإكبار.

ومن خلال رسالة ابن قتيبة إلى الكتاب نلمس أنه يريد منهم أن تخرج كتاباتهم في صورة منتظمة ومتناسقة ،ومن باب أولى حاول هو أن يحرص على ذلك.

وضع ابن قتيبة هذه المقدمة التي ضمنها أربع وصايا إلى الكتاب حاثًّا لهم على الإصلاح من أمر الكتابة، والرقي بمن يلي أمرها ،وهي في مجملها **تتضمن غرضين أساسين :**

أولهما: تصوير حال الكتابة وما آلت إليه من حال سيئة يرثي لها.

ثانيهما: بيان الوسائل التي تكفل إصلاحها وإصلاحهم، والنهوض بها لتصل إلى درجة عالية من الجودة والكمال.

وعند قراءتنا لمقدمة كتاب ابن قتيبة ، نشعر وكأنه يعيش بيننا اليوم وهو يرى حال الإعلام وحال العلماء ، وما هو عليه البعض من كسل وخمول ودعة ووهن وضعف لغوي وعلمي ، وابتذال ، وركاكة في الألفاظ ، وتدني في مستوى الحوار سواء بالتطاول على العلماء ، وازدراء شأنهم ، أو بنقل الأخبار غير الصادقة ،والتسرع في إصدار الأحكام والترويج للشائعات ، والوصول إلى المناصب العليا بالطرق غير المشروعة، وبخل القائمين بالأمر على الإنفاق على العلم ، وانغماسهم في ملذات الشهوات ، وبيان مدى كرم المسؤولين وبذخهم في الإنفاق على الحفلات الراقصة اللاهية.

كل هذا وغيره الكثير من القضايا المعاصرة ذكره ابن قتيبة في مقدمة كتابه ، ووضع أُسسا وحلولا لمعالجة هذه القضايا ، ومحاولة الإصلاح ، لو فهمناها و وعيناها وطبّقناها ، وحاولنا الأخذ بما فيها من عِبر وعظات لأمكن الإصلاح قدر المُستطاع .

وقد ذكر "ابن قتيبة" السبب الذي حمله على تأليف الكتاب وهو أنه رأى كسل الكتاب في زمانه وإيثارهم الراحة على بذل الجهد فرأى أن أمر الكتابة متجها إلى التردي والضعف ،والسبب هو انصراف الكتاب عن النظر والبحث ،وابتعادهم عن المعرفة ،وجاء ذلك على لسانه في قوله: "فإني رأيت كثيرًا من كُتَّاب زماننا –كسائر أهله–قد استطابوا الدعة واستوطؤوا مركب العجز ،وأعفوا أنفسهم من كد النظر"[١]

وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان حريصًا على الكتابة مهتمًا بها وبالكُتَّاب. لما لها من خطورة على الأفهام والعقول ،وهذا هدف نبيل يوضح لنا أنه مثال للعالم والأديب والفقيه العامل بما علم ،المحب لأمته وأبنائها من العلماء والأدباء، الحريص على دينه ووطنه وكُتَّاب عصره ، فهو يريد منهم أن تكون لديهم عزائم العلماء، وقرائح البلغاء، وفطرة الأدباء.

اسم الكتاب:

من العلماء من يذكر أن اسم الكتاب (أدب الكاتِب) وهو ابن النديم وابن خلكان ،والسمعاني، والطيب في قلادة النحر والقفطي وابن العماد الحنبلي .

ومن العلماء من ذكره بصيغة الجمع (أدب الكُتَّاب) كابن خلكان والأنباري وابن بشكوال وابن شهبة ،وحاجي خليفة والبطليموسي .كما أن أصحاب كتب الطبقات اختلفت نظرة كل منهم إلى ما افتتح به ابن قتيبة كتاب "أدب الكُتاب أو "أدب الكاتب "فمنهم من

---

[١] شرح أدب الكاتب للجواليقي ،الطبعة الأولى ،تحقيق د. طيبة محمد بدوي ،كلية الآداب ،جامعة الكويت ،١٩٩٥–١٤١٥هـ،ص ١٢٣

عده خطبة للكتاب ومنهم من عده مقدمة له، ومنهم من عده رسالة منفصلة عن الكتاب لما تميزت به من الطول غير المعتاد في مقدمات الكتب آنذاك ،ولما تضمنته من تفصيل لأحوال كتبة الدواوين في عصره ، من شرح وتوضيح لما ينبغي أن يكونوا عليه ،ولما يلزمهم من ثقافة واسعة في مختلف نواحي المعرفة والفنون.

وممن ذكر أن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب حاجي خليفة وابن خلكان يقول حاجي خليفة: "قيل هو خطبة بلا كتاب لطول خطبته مع أنه حوى من كل شيء"[١]

ويقول ابن خلكان :"والناس يقولون :أ ن أكثر أهل العلم يقولون: إن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ،وإصلاح المنطق كتاب بلا خطبة، وهذا فيه نوع تعصب عليه ،فإن أدب الكاتب قد حوى من كل شيء وهو مقنن، وما أظن حملهم على هذا القول إلا أن الخطبة طويلة والإصلاح بغير خطبة"[٢]

والذي أميل إليه أن ما ورد قبل الأقسام الأربعة لكتاب (أدب الكاتب) ما هي إلا مقدمة له وإن طالت ،والتطويل كان لغرض الإيضاح والتفصيل والتعليل وكثرة الاستشهاد.

وقد أشاد ابن خلدون بكتاب (أدب الكاتب) فقال :"وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي :أدب الكاتب لابن قتيبة ت ٢٨٥هـ، و كتاب الكامل للمبرد ت ٢٨٥هـ،وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ت ٢٥٥هـ،وكتاب

---

[١] كشف الظنون ٢٤٧/٢

[٢] وفيات الأعيان ٢٤٧/٢

النوادر لأبي علي القالي البغدادي ،وما سوى هذه الأربعة فتوابع لها وفروع عنها ،وكتب المحدثين في ذلك كثيرة"[١]

فابن قُتيبة عالم لغوي مُتقدّم ذو ثقافة عالية ومتوسعة في مختلف المجالات من لغة ومنطق وفلك وهندسة وحِكَمٍ بليغة ، كما أن كُتبه من كُتب التراث القيّمة التي لا غنى عنها لأي باحث أو دارس مُتخصص ، ومن بينها هذا الكتاب الذي هو محل الدراسة.

[١] مقدمة ابن خلدون٤/١٢٦٨

المحور الأوّل
تعريف التراث

المحور الأوّل: تعريف التراث

أولًا : تعريف التراث فى اللغة: كلمة (تراث) مشتقة من الفعل(ورث،) ومرتبطة دلاليا بالإرث والميراث والتركة والحسب، وما يتركه الرجل الميت، ويخلفه لأولاده.

يقول ابن منظور في كتابه" لسان العرب":" ورث الوارث: صفة من صفات الله عز وجل، وهو الباقي الدائم الذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم، والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. أي: يبقى بعد فناء الكل، ويفنى من سواه، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له، قال الله تعالى إخبارا عن زكريا ودعائه إياه:{يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[مريم:٦] أي: يبقى بعدي فيصير له ميراثي..."[١]

وعلى هذا يكون أصل كلمة (التراث) في اللُّغة من مادة (ورث)، التي تدور معانيها حولَ حصول المتأخِّر على نصيب مادي أو معنوي ممَّن سبقه، فالتراث: الميراث – والتاء فيها منقلَبِة عن واو؛ كالتُّخَمة والوُخَمة –: وهو كلُّ ما يُخلِّفه الرجل لورثته.

والتراث بمعناه العام: ما خلَّفه لنا أسلافُنا من عقائدَ وعلوم ومعارف، وثقافاتٍ وعادات وتقاليد، وتجاربَ وخِبرات، وآثارٍ وفنون... ، لكن ما يَعنينا في هذا المقام

---

[١]ابن منظور: لسان اللسان ، تهذيب لسان العرب، هذبه بعناية: المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، تحت إشراف الأستاذ عبد أحمد علي مهنا، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م، ص:٧٢٨-٧٢٩ بتصرف وإيجاز

هو التراث الفكري، المتمثِّل في الآثار المكتوبة التي حَفِظها التاريخُ كاملةً أو مبتورة، فوصلتْ إلينا بأشخاصها، وهذا التراثُ ليس له حدود تاريخيَّة معيَّنة، فكلُّ ما خلَّفه مؤلِّفٌ من إنتاج فكرى بعد حياته يُعدُّ تراثًا فكريًّا، وعليه فهو: كلُّ ما وصل إلينا مكتوبًا في أيِّ فرع من فروع العلوم والمعارف.

"ويتناول التراثُ العربيُّ كلَّ ما كُتب باللُّغة العربية، وانتزَع من رُوحها وتيَّارها قَدرًا، بصرف النَّظر عن جِنس كاتبه، أو دِينه، أو مذهبه؛ فإنَّ الإسلام ألغى هذا التقسيم وقَطَعه في جميع الشعوب القديمة التي فتَحَها، وأشاع الإسلامُ لُغةَ الدِّين فيها، وهي اللُّغة العربية التي لوَّنت تلك الشعوب بلون فكريٍّ واحد متعدِّد الأطياف، هو الفِكر الإسلامي، وهو الفِكر العربي"[١].

وبذلك تكون كلمة (التراث) من مشتقات (ورث)، وأنها لم ترد بالمفهوم الثقافي والحضاري الذي التصقت به دلاليا كلمة التراث كما في عصرنا الحديث والمعاصر، بل وردت الكلمة بمفهومين: أحدهما: مادي يتعلق بالتركة المالية، وما له علاقة بالأصول والمنقولات، والثاني: معنوي يرتبط بالحسب والنسب. بيد أننا نفهم أن علماءنا المحدثين وظفوا التراث بمفهوم آخر، وهو: أن التراث كل ما خلفه الأجداد للأحفاد على صعيد الآداب والمعارف والفنون والعلوم، أو هو بمثابة الذاكرة الثقافية والحضارية والروحية

---

[١] انظر: "التراث العربي"؛ لعبدالسلام هارون، (ص: ٣ – ٥)، و"مناهج تحقيق التراث"؛ د. رمضان عبدالتواب، (ص: ٨).

والدينية التي تبقى للأبناء والأحفاد من أجدادهم وآبائهم. ويعني هذا أن الدلالة الحديثة للتراث بمثابة توظيف مجازي للدلالة المعجمية القديمة.

بدايات التفكير فى التراث. وأهم نظرياته :

من خلال الاستقراء والتتبع للكلمة ومشتقاتها يتضح لنا أن كلمة (تراث)، و كلمة ميراث، ولا أي من المشتقات من مادة (و. ر. ث)، قد استعمل قديما في معنى الموروث الثقافي والفكري– حسب ما نعلم–، وهو المعنى الَّذي يُعْطَى لكلمة "تراث" في خطابنا المعاصر.

إن الموضوع الذي تحيل إليه هذه المادة ومشتقاتها في الخطاب العربي القديم كان دائما: المال، وبدرجة أقل: الحسب.

أما شؤون الفكر والثقافة، فقد كانت غائبة تماما عن المجال التداولي، أو الحقل الدلالي، لكلمة تراث ومرادفاتها، إنما كان العُلماء يستعملون كلمات هي أرقى في التناول ، وأعذبُ في النطق، فهم علماء يصنعون العلم ، ويبنون المعرفة الصحيحة ، فقد حادوا عن استعمال هذه اللفظة لأنهم كانوا يعلمون مدلولها ، وما تحويه من معنى فلم يكن بهم الأثرة ولا الأنانية فتركوا هذه الكلمة لنا لما كان لديهم من بُعد نظر فيما عليه حالنا من ضعفٍ علمي ، وفقر لُغويّ ، وعبَّروا عما أرادوا التعبير عنه من علم من سبقهم بكلماتٍ هي الأبلغ في التعبير، والأرق في التصوير، والأدق في التبصير والتنوير.

فنجد أن ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ عندما يتحدث عن التراث نراه يقول لدى حديثه عن الأديب غير المطالع لعلوم من سبقوه، المتعجل لطلب العلم واصِفًا له بالجهل مكررا هذا اللفظ :"... ولو أن هذا المُعجَب بنفسه الزاريَ على الإسلامِ بِرَأْيِه، نظر من جهةِ النظر لأَحْيَاهُ الله بِنُورِ الْهُدى وثلجَ اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول –صلى الله عليه وسلم –وصحابته ، وفي علوم العرب ولُغَاتها وآدابها..."[١] كما أطلق على كلام السابقين دقائق الكلام، والحكمة، وفصل الخطاب، وذلك عندما قال: " ولو أن مؤلف حدّ المنطق بلغ زماننا هذا حتّى يسمع دقائق الكلام في الدِّين والفقه والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البُكمِ ، أو يسمع كلام رسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب"[٢]

كذا نجد أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ت ٢٥٦هـ مثلا، في مقدمة رسالته المعروفة بـ"كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى"، عن فضل القدماء، وواجب الشكر لهم، وضرورة الأخذ عنهم– في مجال العلم والفلسفة– لا يستعمل العبارة الشائعة لدينا اليوم، عبارة عن "تراث الأقدمين"، بل يستعمل تعابير أخرى مثل: " ما أفادونا من ثمار فكرهم"، فما أجملها من عبارة صورت لنا عقول السابقين بحدائق مثمرة فيها النفع والخير الكثير ، وكان دقيقًا في تعبيره بمن التبعيضية التي توحي بأن ما وصل إلينا من ثمار فكرهم ،– وسوف أكرر عبارته لجمالها وأريحيتها في نفسي – ما هو إلا قليلٌ من كثير ، وغيض من فيض مما جادت به قريحتهم .

---

[١] مقدمة ابن قُتيبة ص ٣

[٢] السابق ص ٥

وبالمثل نجد ابن رشد ت ٥٩٥هـ في كتابه :"فصل المقال" يستعمل في المعنى نفسه عبارات تخلو تماما من كلمة "تراث" أو ما يرادفها. يقول مثلا: "فبين أنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك".[١]

كذلك نجد الإمام عبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ وهو إمام البلاغة ومؤسسها عندما يُنَبِّه على مسألة موجودة في تراث من سبقه لا يذكر كلمة التراث مُطلقا، وإنما كانت له عبارات مضيئة تحوي ألفاظًا مُشرقة ، من ذلك عندما يشير إلى اتفاق سابقيه على مسألة من مسائل العلم تراه يقول: "اتفق العقلاء"، وهي عبارة دقيقة مُعبرة في موضعها ، ناطقة بمضمونها ومحتواها ، فهم ليسوا مجرد علماء ، وإنما هم عُلماءٌ عقلاء ، فليس كلُّ عَالِمٍ عاقِلٍ ، وصدق في ذلك ، ولا أدلُ ، ولا أصدق على كلمته هذه ما نراه في بعض علماء العصر من خِفَّةٍ وعدم تعمق في العلم ، وتهاون بعلم السّابقين والازدراء من شأنهم ، والتطاول عليهم ، فمن كان له عقل لا يجرؤ على أن تصدر منه هذه الزلات ولا تبدر منه هذه الهفوات ولا الهنّات .

كما أنه إذا نَبَّه إلى مسألة موجودة عند من سبقه نراه يقول بتواضع العالم ونسبة الفضل لأهله: وأن هذا كلُّه موجودٌ في كلام العرب، وإذا تحدَّث عن بيان فضل العلم ، وأنه قد اطلع على شيء من ذلك ؛ نراه يُكَنِّي عن العلم بالفضائل، ما أروعها من كلمة !،

---

[١]د. محمد عابد الجابري: (التراث ومشكل المنهج)، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦، ص:٧٢-٧٣

وما أجملها من لفظةَ !، حين يقول : إذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف ، ونتبيّن مواقعها من العظم..."[١] ،[٢]

مكانة التراث العربى عند أهله:

التراث هو ذاكرة الأمة وحاضرها ومستقبلها ، هو هويتها ، وكيانها هو الماضي الذي يربط جسرًا بينه وبين الحاضر للعبور إلى المستقبل.

والإنسان، –ولاسيما العربي – لا يمكن أن يعيش بدون تراثه وذاكرته وثقافته وفنونه وحضارته، وإلا أحس بالاغتراب الذاتي والمكاني، واستشعر النقص والانفصام والعزلة، واسترخص نفسه ازدراء واحتقارا. ويعلم الكل مدى تمسك الإنسان المسلم فِطْرةً بالشرع الرباني قرآنا وسنة، والسير على منهج السلف الصالح؛ لذلك نراه عرف تراثا زاخرا بالمنجزات الهائلة في شتى الميادين والمجالات، وصار يضرب به المثل في التقوى والعطاء والعلم والإنجاز والاختراع والابتكار.

وبابتعاد الإنسان العربي المسلم عن دينه وقرآنه وآخرته ،وانشغاله بهموم الدنيا، وذلك بعد انغماسه وانشغاله بالحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، والمنجزات العصرية، وبالتقريب لا بالتحديد كان بداية ذلك إبان فترة الدولة العباسية، عندما ما تقهقر المسلمون وانحطوا؛ بعد هزيمتهم أمام المغول، الذين كانوا هم بداية الشر والفساد على العرب وما زالوا، ولكن بمسمياتٍ أُخرى ، وأقنعة مُتغايرة ، فتضعضعوا انكسارا وتخلفا،

---

[١] يراجع دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص ٤ قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م.

[٢] والجُرجَانيُّ له باعٌ طويل في هذا يحتاج إلى دراسة مُستقلة ليس مجالها هنا حتى لا نخرج عن الموضوع الرئيس.

ولم يستيقظوا من سباتهم إلا مع دوي مدافع الغرب، ليجدوا أنفسهم منبهرين بتطور الغرب وتقنياتهم وحداثتهم.

فبدأ المفكرون والعلماء والمصلحون والمبدعون يطرحون سؤالا مهما وجوهريا، استهلك منهم الكثير من الوقت والجهد ، دون أن يتوصلوا إلى الإجابة عنه : لماذا تقدم الغرب، وتأخر العرب؟! [١]

ونجد بعد ذلك صحوة من عُلماء العصر؛ صحوة كان لابد منها لنستيقظ من سُبَاتِ غفوتنا فنجد طائفة من علماء العصر وعلى رأسهم أستاذنا الدّكتور محمد محمد أبو موسى يُحَاول أن يردّنا إلى تُراثنا ردّا جميلا ، بعبارات تقربنا منه وتحببنا فيه بأسلوب رقيق وألفاظ شريفة ، تشبه ألفاظ تراثنا الشريف الكريم إذ نراه يؤكد على أن الرُّجوع للتراث من آداب طلب العلم ، ومنهج أصيل من مناهج البحث العلمي: فهو يرى :" ضرورة توقير الكلام الصادر عن العلماء الذين لهم فَهْمٌ في الموضوع المدروس ؛ لأن كلامهم لا يكون إلا عن فهم وبصيرة ، فإذا كان ظاهر كلامهم لا يَلْتَئِمُ مع ما استيقن الباحث من أفكار ، فلا يُغريه ذلك برَدِّه ، وإنما عليه أن يُراجعه ، وأن يُفاتشه حتَّى يجد له مخرجًا غير الظاهر، والمهم هو تجنُب المسارعة إلى رفض الكلام الصادر عن أهل العلم ..."[٢].

وصدق في ذلك ولكن أنّى لنا بطالب العلم المتأن المتئدُ في زماننا هذا فقد افتقده ابن قُتيبة في زمانه هو حيث نراه يقول: " فإني رأيت كثيرًا من كتّاب أهل زماننا كسائر أهله قد

---

[١] سبحان الله الفارق بين الكلمتين نقطة ، وهي فعلًا نقطة لو أزلناها بالمعرفة والعلم لما كان لهم وجود ، فالعرب أصل الناس ، وهم أساس الحضارة والعلم والمعرفة.

[٢] مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجُرجاني ص ٦٨، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٨٨م.

استطابوا الدَّعَةَ[١] واسْتَوْطَؤُا مَرْكَبَ العجز ، وأَعْفَوْا أنفسهم من كدِّ النّظرِ ، وقُلوبَهم من تعبِ التفكير ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، ونالوا البُغية بِغيرِ آلة ...، فأين همّةُ النّفسِ ؟ وأين الأنفةُ مِن مُجانَسةِ البهائم.."[٢].

ولعله بذلك يُشير إلى قضية مهمة من قضايا المجتمع المعاصر ، وهي قضية نيل المناصب والمراكز القيادية عن طريق المحسوبيات والوسائط ،لا أن عن طريق المقدرة والكفاءة ؛ لذلك نراه يقول بعد ذلك : " وأيُّ موقفٍ أَخْزى لصاحبِهِ من موقفِ رجُلٍ مِنَ الْكُتَّابِ اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسرّه ، فقرأ عليه يومًا كتابًا وفي الكتاب:(ومطرنا مطرًا كَثُرَ عَنْهُ الْكَلَأُ)، فقال له الخلفة مُمتحنًا له : وما الكلأ ؟ فتردد في الجواب وتعثر لسانه، ثم قال لا أدري ، فقال: سل عنه..."[٣]

فانظر – رعاك الله – أخي القارئ من نبرة الاستهزاء والسخرية في أسلوب ابن قُتيبة، ممن يمتطون المناصب وهم غير أهل لها ، وغير جديرون بها ...

الإيمان بالتراث:

التراث هو الوعي بالذات؛ الذات المحصنة بالهوية العربية الإسلامية ، التي من الواجب بناء هويتها الحقة على الأصول النظرية الموجودة – أصلا – في الأصول ، التي أساسها الأول هو القرآن الكريم ، الذي لا مدخل إليه غير تفاسيره ، و ما اشتملت عليه

---

[١] الدعة : الرّاحة والخفض في العيش هـ مقدمة أدب الكاتب ص ٦

[٢] مقدمة أدب الكاتب ص ٦

[٣] السابق ص ٧ ، والخليفة السائل عن الكلأ هو الخليفة (المعتصم) ، وكان أميا ، والكاتب أحمد ابن عمّار، ولذلك قال له إنا لله وإنا إليه راجعون خليفة أمي وكات أمي انظر القصة بكاملها في هامش مقدمة أدب الكاتب ص ٦، ٧.

من مادة لغوية ، وأدبية ، ونقدية إسلامية لكونها صادرة عن النص القرآني ، أو مرتبطة به...،التراث عنصر رئيس من عناصر الهوية العربية والإسلامية، كما أنه مكونًا ثقافيًا راسخًا في الوعي الجماعي لحضارة ضاربة في عمق التاريخ ، وممتدة على تضاريس الجغرافيا.

فالذي يفقد تراثه يفقد توازنه وذاكرته وأصوله وبذلك يتحول إلى إنسان سلبي ينفعل بالأشياء والأحداث دون أن يفعل فيها أو يتفاعل معها ، ونحن الآن في زمن الانسلاخ من كل القيم الأصيلة والتبرؤ منها.

يأتي الوعي بأهمية التراث والإيمان به من مدلول الكلمة ومعناها السابق ذكره والذي مفاده بأن التراث عبارة عن زخر يدَّخره الآباء للأبناء ليكون لهم عونًا عند الشدائد، وصديقًا عند الضيق ، ورفيقًا على الدّرب وهاديًا إلى الطريق.

والتراث بذلك ليس خاصًا بالسابقين ، هم ماتوا وتركوه لنا ، وإنما هو بذلك تراثنا نحن ، فهو ملك لنا نحن الذين ورثناه عنهم ، ولا نتركه لأحد غيرِنا، ولا نتنازل عنه مقابل عبارات هواء تُنَفِرُنا منه ، وتُبْعِدُنا عنه ، وتُضَلِلُنا سبيل الوصول إليه .

موقف العربى من التراث :

انقسم الناس في نظرتهم للتراث إلى ثلاثة طوائف بين محب ورافض ومحايد.

الطائفة الأولى: تقدس التراث ، وتسعى إلى إحياء الماضي، وبعثه من جديد تمجيدًا وتنويهًا وإشادة.

الطائفة الثانية: ترفض الرجوع إلى التراث، كما يتضح ذلك جليًّا عند سلامة موسى الذي قال :"إن أسوأ ما أخشاه أن ننتصر على المستعمرين ونطردهم، وأن ننتصر على

المستغلين ونخضعهم، ثم نعجز عن أن نهزم القرون الوسطى في حياتنا ونعود إلى دعوة: عودوا إلى القدماء".[١]

الطائفة الثالثة: محايدة حاولت التوفيق بين إيجابيات العودة إلى الماضي وإيجابيات الانفتاح والاستفادة من متطلبات وتكنولوجيا ، ويمثل هذا الموقف أغلب المثقفين العرب الأكاديميين المعاصرين.

وكما أنَّ الوطن هو المهد الأوَّل – بعد التوحيد – للإنسان، يحنُّ إليه كلَّما بَعُدَ به المطافُ في بلاد الله، ويَشعُر في قرارة نفسِه بحبِّه وتفديته، ويَدين له أبدًا بالإعزاز مهما أغرتْه المغريات، وباعدتْ بينه وبين أرضِه ضروراتُ العَيْش، كذلك يُعدُّ التراث الفكريُّ هو المهدَ الأوَّل لتفكيره ولنفسه، وأيُّ انفكاك بين المرْءِ ودِينه أو وطنه، أو بين المرء وتُراثه – يخلق منه امرءًا مهزوزا ، فاقد الاتزان تتجاذبه أطرافُ الضياع، وفقدان النفس، وضياعُ النفس مدعاةٌ إلى التفكُّك والتخلخل، والشُّعورِ بالبؤس والمذلة اللَّتَيْن لا تطيب معهما الحياة"[٢]

والتراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو لا يمثل تماثيل الأفكار في متحف الماضي، بل هو مخزون شعوري عند الجماهير نتصرف من خلاله صباحًا ومساءً، شئنا ذلك أم أبينا ؛فهو يمثل لنا نحن العرب و المسلمين خاصّة منهج حياة وسلوك يومي؛ لأنه محاولة كل عصر أن يفهم أو أن يكوَّن نظريات من خلال

---

[١]انظر محمد عابد الجابري: الخطاب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دار الطليعة ، بيروت، لبنان، مايو ١٩٨٢م،ص:٣٧.

[٢] انظر: "التراث العربي"؛ لعبدالسلام هارون، (ص: ١٤

فهمه لأصول الدين (القرآن والسنة) من خلال الواقع، وأكد علماء المسلمين الأوائل بأنه:لا صلاحَ لهذه الأمَّة إلاَّ بالعَوْدة إلى المَعِين الصافي، إلى الإسلام الصحيح المعتدل، ورَحِم الله إمامَ دار الهجرة مالك بن أنس القائل: "لا صلاح لهذه الأمَّة إلاَّ بما صَلُحَ به أوَّلُها"[١]، وهذه الدعوة للعودة للتراث ليستْ دعوةً للتخلُّف أو الرجعيَّة، وإنَّما دعوة للتمسُّك بمنابع الصلاح الأُولى التي سادتْ بها الأمَّةُ الدنيا، والمحافظة على العادات والأخلاق القويمة، ودعوةٌ للتخلُّص من الخُرافات والخزعبلات، والاعتصام بالعِلم والثقافة، وبمنهجية التفكير العربيّ السليم.

ولاشك أن للتراث العربي الإسلامي أهمية قصوى في بناء الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة معرفيا وفكريا وتصوريا، كما أن له دورٌ كبير في الحفاظ على الهوية والذات والكينونة الوجودية، وللتراث بعدٌ مهمٌ في تحديد الانطلاقة الصحيحة من أجل تحقيق مستقبل أفضل ، وذلك عبر ترسيخ ثقافة عربية أصيلة ومعاصرة.

التراث العربى نماذج ومفاخر:

وقد ترك لنا الأوائل تراثٌ مُشَرِّفٌ ومُشْرِقٌ وناضج في شتى أنواع العلوم والمعارف "يكفي أن تُقلِّبَ طرفَك في أثناء كتاب "كشف الظنون عن أسامي العلوم والفنون"؛ لحاجي خليفة، لتقرأ أسماءَ نحو مائتي عِلْم أو فن؛ كعِلم آداب البحث والمناظرة، والآلات الحربيَّة، والآلات الرَّصديَّة، وعلم انبساط المياه، وعِلم الأوزان والمقادير ، والبيزرة، والبيطرة، وتدبير

---

[١] وردت هذه المقولة في كتاب المبسوط للقاضي اسماعيل بن إسحاق الجهضمي المالكي ت ٢٨٢هـ٢/ ٨٨، وينظر اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢/ ٧٦٢، ٧٦٣ ، طبعة مكتبة الرشد.

المدينة، وتدبير المنزل، وتركيب المداد، والجبر والمقابلة، والجِراحة، والجغرافيا، والجهاد، والحكمة، والرمي، والرياضة، والسياسة، والسيمياء، والشروط والسجلات، والصيدلة، والطبخ، والفتاوى، وقوانين الكتابة، والكحالة، والكيمياء، ومراكز الأثقال، والمرايا المحرقة، والمساحة، والمعادن، والمعمى، والملاحة، والنبات، والهندسة، والهيئة... إلى كثير جدًّا ممَّا أغفلتُ ذِكْرَه، هذه بعض أسماء علومهم، وهي قلٌّ من كثر – كما يقولون – وقد تكفَّل حاجي خليفة في كتابه بتوضيح مدلولاتها، وتقديم دراسات مُوجَزة عنها"

والتراث العربي بصفة عامة والنقدي والبلاغي بصفة خاصة يحتاج الكثير من الحذر والدقة في التعامل معه لفهمه ، واستيعابه ، واستقصاء ما وراء المعاني ، واستخراج كنوزه ونفائسه ، وخاصه أن معظمه نشأ لخدمة كتاب الله والوقوف على أسرار إعجازه .

فالتراث محاورٌ يثير الدهشة، يقتحمه طالب العلم القادر على استيعابه وفهم جوانبه التي تتطلب جهدًا ليس بيسير .

الشروط التى يجب توافرها لتحقيق النهضة فى التراث:

لكي نفهم التراث ونتعامل معه من أجل تشييد ثقافة عربية أصيلة مستقبلية، تكون أرضية ممهدة لانطلاقنا حيال المستقبل، فلابد –إذاً– من خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام، ولابد من شحذ الهمم ، والتشمير عن السواعد، وجهد القرائح ، وتحريك النفوس ، واستشعار أهمية التراث ، فهو ذخر لنا ادَّخره أسلافنا ليكون عونًا لنا حتى لا نغرق في مهاوي ادعاءات التقدم والتطور التي تحاول أن تشعرنا بالعجز والتبعية ، وعدم القدرة على اللحاق بالركب.

علاوة على ذلك، لا يمكن أن تتحقق النهضة الفكرية إلا بالتعامل مع التراث داخل الثقافة نفسها، بممارسة نقد الماضي والحاضر معا:" إنه بممارسة العقلانية النقدية في تراثنا وبالمعطيات المنهجية لعصرنا، وبهذه الممارسة وحدها، يمكن أن نزرع في ثقافتنا الراهنة روحا نقدية جديدة وعقلانية مطابقة، وهما: الشرطان الضروريان لكل نهضة.[١]

كما أن التراث يحتاج إلى تأصيل وتيسير وتجديد حتى نصل لفهمه وتفسيره، وتمثل إيجابياته ومواقفه الهادفة والبناءة، ونتعامل معه بسهولة ويسر .

ولا نعير اهتمامًا لمن قال بصعوبته وغموضه ، ولكن نعي جيدًا دقته و ثراءه ، وهو يحتاج منا الكثير والكثير، ولا بد أن نُكرِّث جهودنا في هذا الإرث لتوضيح مُبهمه ، وشرح مُجمله، واستخراج نفائسه ، ونترك الباب مفتوحًا للأجيال من بعدنا، ولا نخدعهم ونضللهم كما خدعونا وضللونا بقولهم: التراث القديم والتراث العقيم ...وغير ذلك مما يثبط الهمم ، ويخور بالعزائم.

وبقراءة التراث قراءة معاصرة والنظر فيه بعيدًا عن هذه المقولات ، ملتمسين فيه السند والحماية نرى أن قضايا العصر ومشكلاته كلها أتت من بُعدنا عن تراثنا ، والتماس الحلول في تراث غريب عنّا وعن عاداتنا وتقاليدنا هو السبب فيما نحن فيه من تأخر ، وعدم مواكبة للحضارة فلا نحن تمسكنا بتراثنا وحافظنا عليه ووعيناه جيدًا ولا نحن استطعنا اللحاق بالركب القائلين بالتغريب من مدّعي الحضارة والمدنية.

---

[١] د/ محمد عابد الجابري ص ٨٧

المحور الثاني
القضايا المعاصرة التي تناولها ابن قُتيبة في مقدمته
ومقومات الإصلاح التي ذكرها

المحور الثانى: القضايا المعاصرة التى تناولها ابن قتيبة فى مقدمته ومقومات الإصلاح التى ذكرها

تناول ابن قُتيبة في مقدمة كتابه الكثير من القضايا المعاصرة ، وكأنه يعيش معنا وعلى أرضنا ، وفي زماننا وسوف أورد بعضًا من هذه القضايا ومقومات إصلاحها على ترتيب ورودها في مقدمته.

أولا: قضية العلم و التعليم . وعذوف الطلاب عنه:

من الحقائق المؤلمة في واقعنا المعاصر والتي لا يُصرِّح بها أحد من المهتمين أو المتخصصين أو المسؤولين أن بعض مؤسساتنا التعليمية لا تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل ونستطيع القول– مع الحرج– أنه ليس بها تعليم ولا علم ، وهي مقر إداري فقط ، لمتابعة أمور الطي والقيد وغير ذلك ، وهذا ما ألجأ الطلاب إلى عدم الرغبة في الذهاب إلى المؤسسات التعليمية ، وهم إن ذهبوا لا لشيء إلا للحصول على النسبة المقررة للحضور لدخول الاختبارات ، أو للالتقاء الأصدقاء بعضهم ببعض، أو غير ذلك مما ليس هو من صميم العملية التعليمية.

هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن اتِّجاهات الطلاب مُوجهة إلى دراسة العلوم العلمية أكثر منها إلى الأدبية، ظنّا منهم أن المستقبل في دراسة هذه العلوم، وأن الكليّات العملية هي كليات القمة التي يُنظر إلى منسوبيها بعين التوقير والاحترام والإجلال .

ناهِيك عمَا يحدث في الاختبارات من تجاوزات وأخطاء –خاصّة الاختبارات في مرحلة الثانوية العامة، منها ما فيه مجاوزة للحدود الشرعية والأخلاق المهنية كالغش ، وتسريب الاختبارات وغير ذلك.

وغاب عن هؤلاء أن الله – سبحانه وتعالى – خلق الناس درجات منهم من يأخذ من العلم كثيرا ومنهم من يأخذ من العلم قليلا والأنبياء –عليهم صلوات الله وسلامه– أيضا درجات قال تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} سورة البقرة ٢٥٣ فليس ضروريا أن يكون طلاب العلم كلهم في مرتبة واحدة فالله –جل وعلا– هو الذي قسم هذا الشيء، وعلماء السلف كانوا على ذلك، الصحابة في العلم ليسوا على مرتبة واحدة ؛ و كلا علّم بما عنده، وأئمة الإسلام وعلماء الدين أيضا لم يكونوا على مرتبة واحدة؛ لكن النية الصالحة في أنهم يطلبون العلم لله –جل وعلا– وينوون رفع الجهل عن أنفسهم وعن من يلونهم ويستعينون بالله ويجاهدون بحسب الإمكان ولا يقولون على الله– جل وعلا– بغير علم .

فلابد من إخلاص النيّة لله –سبحانه وتعالى–في طلب العلم، ولا يكون العلم لأجل المناصب ، ولا المباهاة والمفاخر، فهذا هو العلم الذي يؤجر عليه أصحابه.

وهذه قضية كبيرة وخطيرة لا يكفيها أسطر على صفحات بحث ، ولها رجالٌ صالوا وجالوا في حل هذه المشكلة دون جدوى، وما نعنيه هنا أن هذه القضية على حداثتها ومعاصرتها تَنَبَّه إليها أوائل العلماء أمثال ابن قتيبة ، وذكروها في متون كتبهم ، لا لأن تطويها صفحات الزمان ، بل لأن نقف عليها ، ونذكرها و نتذاكرها لئلا نقع فيما نبهنا

إليه أسلافنا ، ولكن بخداعنا وقد خُدعنا فعلا بصعوبة التراث وغموضه .لم نتنبه أو ننتبه إلى ذلك ، حتى أصبحت هذه مشكلة مُستعصية ، يحاول العلماء والمتخصصين إيجاد حلول لها.

وقد نبه ابن قُتيبة على هذه المشكلة في مقدّمة كتابه حين قال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله:" فإنّي رَأَيْتُ أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه مُتَطّيرين ، ولأهله كارهين "[١] ،[٢]

سبحان الله! هو يقول عن أهل زمانه هذا ، فما ذا يقول لو رأى حالنا وما هو عليه أهل زماننا؟!

ونرى تأكيد ابن قُتيبة لكلامه ، ودخوله فيه بكل ثقة ، بعد أن هيّأ له بكلِّ ثقة.
ثم قسّم بعد ذلك الناس في هذا المضمار إلى ثلاثة أقسام وهذه قضية أخرى أخطر من سابقتها إذ نراه يقول : " أمّا النّاشِئ منهم فراغِبٌ عن التعليم، والشّادي تاركٌ للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناس" [٣]،[٤]

---

[١]ناكبين : جمع ناكب وهو العادل عن الشيء ، أي :عادلين عنه ، وقيل للذي يعدل عن الشيء ناكب لأنه يوليه منكبه ، لسان العرب مادة (ن ك ب)، متطيرين : متشائمين لنفور طباعهم عنه ، والطائر والتطير : الشؤم ، لسان العرب ، مادة (ط ي ر)،

[٢]مقدمة أدب الكاتب ص ١

[٣]النّاشيئ : الحدث الشاب حين نشأ ، أي ابتدأ في الارتفاع عن حد الصبي إلى الإدراك، ، والشادي : الذي قد شدا من العلم شيئًا ، أي أخذ منه طرفًا وتعلمه ، وعنفوان الشباب ريعانه وميعته،

[٤]المرجع السابق المكان نفسه.

وقد أبدع ابن قُتيبة وبرع في هذا التقسيم ، وتمثلت براعته وإبداعه بأن راعى البدء بالناشئ، وهو الحدث الشاب ، ثم ثنى بالشّادي ، وهو الذي أخذ من العلم طرفًا وأتقنه، وختم بالمتأدب في عُنفوان الشباب ، وبذلك لم يترك شيئًا من أنواع المتأدبين الذين هجروا العلم ونفروا منه.

وكانت النتيجة لذلك أن قلَّ العلماء ، وقمعوا، وقل الخير بغلاء الأسعار، وانتُزِعت البركة من كل شيء وفي ذلك نراه يقول :" فالعلماء مغمورون ، وبكرّة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير، وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله "[١] ،[٢]

نلمح في كلامه إشارة أن كل شيء أضحى يباع ويشترى فلا إخلاص ولا مروءة ولا أمانة، وهذا هو حالنا، ولعل هذا هو النتيجة المنطقية للعزوف عن العلم ، والتطير منه ، وكره أهله، فالعلماء خاملون لا يذكرهم أحد ، ولا يُنظر إليهم بتقديرٍ واحترام ، فعلماء المجتمع هم عُدّة الأمة ،ومعلمو الأجيال الذين هم حاضر الأمة ومستقبلها؛ فلهم مكانة سامية ومنزلة رفيعة ، وصدق من قال عنهم: " العلماء ورثة الأنبياء" في أنهم هداة الجيل ، وبعلمهم يُهتدى ، وبأفعالهم يؤتم .

---

[١]مغمورون : خاملون : لا نباهة لذكرهم ، وأصل الغمر: التغطية، وكرة الجهل: دولته، ، مغمورون : مقهورون مغلوبون ، وأصل القمع الضرب بالمقمعة، خوى نجم الخير : أصله خلا من المطر، أي :أخلف مطره، الذي كان يُرجى منه ، ثم استعمل(خوى النجم) بمعنى سقط وأفل، ثم استعمل في معنى قلة الخير، وسقوط الدولة ، وكسدت سوق البر أي : فسدت وبارت ولم ترج سلعها

[٢]أدب الكاتب ١، ٢

فقد سُئِلَ أميرُ المؤمنين في حديث عبدالله بن المبارَك المتوفَّى سنة ١٨١هـ، سئل: مَن الناس؟

فقال: العلماء، فقيل: فمَن الملوك؟ قال: الزُّهَّاد، قيل: فمَن السَّفِلَة؟[١]

قال: الذين يأكُلون الدُّنيا بالدِّين، فجعَل الناس الذين يستحقُّون منزلةَ الإنسانيَّة هم العلماء، وقد صدَق!

وما أروع جوابَه عن السَّفِلَة! إنَّ أسقَطَ الناس هم الذين يَبِيعون دِينهم من أجل الدُّنيا، هؤلاء هم عُلَماء السوء.

ويقول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((إنَّ العالِم لَيستغفِرُ له مَن في السَّماوات ومَن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمَن أخَذه أخَذ بحظٍّ وافِر))؛[٢].

ومنزلة العالم في الإسلام منزلةٌ عالية؛ قال – تعالى –: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال – سبحانه –: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

ويقول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((ليس منَّا مَن لم يجلَّ كبيرَنا، ويرحَمْ صغيرَنا، ويَعرِفْ لعالِمِنا حقَّه))؛[٣].

---

[١] السَّفِلة: بفتح السين وكسر الفاء: السقَّاط من الناس، على وزن (كَلِمة)، ويجوز التخفيف فتقول سِفْلَة. لسان العرب ، مادة (س ف ل)

[٢] رواه أبو داود برقم ٣٦٤١، والترمذي برقم ٢٦٨٢، وابن ماجه برقم ٢٢٣

[٣] رواه أحمد والحاكم، "صحيح الجامع الصغير" ٥٤٤٣

وهذا التطاوُل على العلماء السابقين والمعاصرين جريمةٌ في حَقِّ العلم؛ إذ لا بُدَّ من الاعتراف بالفضل للمتقدِّمين من العلماء الأوَّلين، وللمتميِّزين من العُلَماء المُعاصِرين.

والتطاوُل على العلماء تشكيكٌ للناس في أئمَّة الدِّين ونقَلَة الشريعة، ولا يُخفِّف من عظمة الجريمة أنْ يُغلِّف هذا المتطاوِل هُجومَه بالثناء على مَن يتطاوَل عليه؛ ليجعل ذلك مقدمة لطَعنِه، وليدَّعي أنَّه قال ما له وما عليه، وهو في الحقيقة لم يفعلْ، يقول ابن قتيبة موبّخًا من يفعل ذلك " فأما السِّبابُ ، وشَتْمُ السَّلَفَ وذِكْرُ الأعراضِ بكبير الفواحش لا نرضاه بِخساس العبيدِ ، وصغار الولدان"[١]

وممَّا يتَّصل بهذا المعنى أنْ يعمد رجلٌ من هؤلاء الناشئين إلى مسألةٍ جزئيَّة هي محلُّ خِلافٍ بين العُلَماء، ويشنع على بعض الأئمَّة الذين يُخالِفون ما يراه، ويُؤسِفني أنْ أُقرِّر أنَّ كثيرًا من هؤلاء المغرورين يفعلون ذلك ابتغاءَ الظُّهور بمظهر العالم الذي يُخطِّئ الشافعيَّ ومالكًا، ابتغاءَ التميُّز؛ فيَنال من أئمَّة الهدى والفقه ويقول: نحن رجالٌ وهم رجالٌ.. كَبُرتْ كلمة يقولها، إنَّه مُدَّعٍ مغرورٌ بعيدٌ عن الحقيقة، وهناك مَن يفعَلُ ذلك في مجال الأدباء والشعراء، قال أبو الفرج الأصفهاني في ترجمة أبي تمام: "وفي عصرنا مَن يتعصَّب له فيفرط، حتى يُفضِّله على كلِّ سالفٍ وخالفٍ، وأقوام يتعمَّدون الرَّدِيء من شِعره فينشُرونه، ويطوون محاسنَه، ويستَعمِلون القحة والمكابرة في ذلك؛ ليقول الجاهل بهم: إنهم لم يبلُغوا علمَ هذا وتميُّزه إلا بأدبٍ فاضلٍ، وعلمٍ ثاقب، وهذا ممَّا يتَكسَّب به كثيرٌ من أهل هذا الدهر، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثَلْبِ الناس وطلب معايبهم، سببًا للترفُّع، وطلباً

---

[١] أدب الكاتب ص ١٢

للرِّياسة، وليست إساءة مَن أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطةً إحسانَه، ولو كثُرت إساءته أيضًا ثم أحسن، لم يقلْ له عند الإحسان: أسأت، ولا عند الصواب أخطأت، والتوسُّط في كلِّ شيء أجمل، والحق أحقُّ أنْ يُتَّبعَ"[١].

قال بعضُهم: العلماء سُرُجُ الأمَّة،[٢] كلُّ واحدٍ مصباحُ زمانِه يستضيء به أهلُ عصره، وقال يحيى بن مُعاذ: العلماء أرحَمُ بأمَّة محمد من آبائهم وأمَّهاتهم، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنَّ آباءهم وأمَّهاتهم يحفَظُونهم من نار الدنيا، والعلماء يحفَظُونهم من نار الآخِرة"[٣]

فلا يحقُّ لنا أنْ نبخَسَهم شيئًا من فضلهم وعِلمهم وهدايتهم.

يقول الله – تعالى – على لسان شعيب وهو يَعِظُ قومه: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٨٥٥].

لكن لمَّا غاب كلُّ ذلك عنَّا ، فلم يوجد فينا من يوقِّر كبيرنا ، ويعطف على صغيرنا ، ويُعطي لعالمنا حقه ، ويوفيه قدره من التوقير والاحترام مُنعنا الرزق والبركة وقل الخير فغلت الأسعار ، وانتشر الظلم والاحتكار ، واختفت السلع من الأسواق ، " وصار العلم

---

[١] مختار الأغاني ٣٤٨/٣.

[٢] العبارة جميلة استضأت بها لما لها من أثر إيجابي في النفوس وهي مقولة شائعة لدى البعض ، وهي مأخوذة من حيث ضعيف مفاده: "اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة" ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٥٥٦)، وأخرجه اليلمي في مسنده ١/ ٣٩، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني المجلد الأول حديث رقم (٣٧٨).

[٣] إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد ١/ ١١ ، دار المعرفة ، بيروت كتاب اليكتروني من المكتبة الشاملة.

عارًا على صاحبه ، والفضل نقصًا ، وأموال الملوك وقفًا على شهوات النفوس، والجاه الّذي هو زكاةُ الشَّرَفِ يُباعُ بَيع الْخِلق ، وآضت المرُوءات في زخارف النجد ، وتشييد البنيان ، ولذَات النّفوس في اصطفاقِ المَزَاهرِ ، وَمعَاطَاةِ النَّدْمَان ، وَنُبِذَتْ الصّنَائِع، وَجُهِلَ قَدْرُ الْمَعْرُوفِ، وَمَاتَتْ الْخَوَاطِرْ ، وَسَقَطَتْ هِمَمُ النُّفُوسِ، وَزِهِدَ فِي لِسَانُ الصِّدْقِ ، وَعَقْدُ الْمَلَكُوتِ" [١] ،[٢]

فقد أخذ ابن قُتيبة من كل فن من فنون الثقافة في عصره بأوفى نصيب ما عدا علم الكلام فإنه لم يتبحر فيه لسوء ظنه به، ولما كان يراه من انحراف كثير من علماء الكلام _في آرائه _عن جادة الشرع وربما عبرت كلمته هذه عن جملة مذهبه في علم الكلام حيث قال "وأما الكلام فليس من شأننا ،ولا أكثر من هلك إلا به، وكذلك كان رأيه في المنطق ،فقد عاب في مقدمة كتابه أدب الكاتب المشتغلين به فارفع درجات اللطيف عندهم –كما يقول –أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ،وينظر في شيء من القضاء، وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ،وهو لا يعرف معناه ،وعلى حديث رسول الله

---

[١]الخلق بفتحتين البالي ، سمي خلقًا لملاسته، ومن ذلك قيل للصخرة الصّمّاء خلقاء لسان العر مادة (خ ل ق)،. آضت : صارت ورجعت، الزخارف ، جمع زُخرف، وأصله الذهب ثم قيل للحسن والزينة، والنجد : ما نُضِد من متاع البيت ، وجمعه نجود، وتشييد البنيان رفعه وإطالته، المزاهر : جمع مزهر، وهو العود ، وسمي مذهرلِحُسن صوته، فإن الوهرة الحسن والنّضارة ، وهي النعمة والخير ، وسعة العيش، واصطفاق المزاهر : الضرب بها، واجتلاب أصواتها، والندمان بِفتح النون هو النديم ، وأصله الذي يصاحبك على الشراب ، ثم أطق على كل مصاحب.

[٢]أدب الكاتب ص ٢

بالتكذيب وهو لا يدري من نقله، فقد رضي عوضا من الله ومما عنده أن يقال :فلان لطيف وفلان دقيق النظر "[١]

فأبعد غايات كاتبنا في كتابه أن يكون حسن الخط ،قويم الحروف ،وأعلى منازل أديبنا أن يقول الشعر أبياتا في مدح قينة ،أو وصف كأس ،وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب ،وينظر في شيء من القضاء ،وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لا يدري من نقله[٢].

وفي هذه المقدّمة ينتقد ابن قُتيبة الكتاب في عصره ،والكُتَّاب في عصر ابن قتيبة يمثلون في عصرنا اليوم العلماء والإعلاميين والأدباء والمفكرين ، فهم من يُبلغون الناس ويُعلمونهم بما يبصرهم من أمور دينهم ودنياهم.

وهذه هي القضية الثانية وهي قضية الإعلام ودوره في بناء الفكر والمجتمع:
وكتاب الله كتاب إعلامي نزل من عند الله بالحق لتحقيق غرض مُعيّن وهو الدعوة إلى الله، وهداية البشر ، ونشر تعاليم الإسلام السّمحة ؛ لتسود روح الإخاء والمحبّة في المجتمع .

---

[١] مقدمة أدب الكاتب ص ٣طبعة ١٣٤٦هـ.

[٢] أدب الكاتب ص ١٠

والإعجاز في القرآن الكريم هي الحقيقة الإعلامية الخالدة، حيث يستعين باللغة الفصيحة والعبارة البليغة القادرة على غزو القلوب والعقول ، وما زلنا ننهل من فيض بلاغته وسحر بلاغته ، فهو كتابٌ خالدٌ مُعجز أعجز أساطين البيان على أن يأتوا بمثله.

والسنة النبوية مصدر إعلامي شديد الفاعلية ، فما تزال أعمال الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأحاديثه وخطبه أكبر مصدر للثقافة.

ثم جاء علماء الأمة لإكمال المسيرة بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وصحبه الكرام إلى أن وصلنا إلى القرن الثالث الهجري ، فوجدنا ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ، يُنَبّهُنا إلى **أمور وقضايا معاصرة منها:**

–أن الإعلام بكل أنواعه مسؤول بإخبار الناس بمصداقية ووعي عن كل ما يهمهم ويخصهم ، ويتصل بحياتهم عقديّا وسياسيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا فهو المسؤول الأول عن نشر الوعي المطلوب في البناء الفكري والثقافي والمجتمعي .

– الأمة الإسلامية والعربية لا ينقصها المال ولا الكفاءات ؛إلا أن الذين يمتلكون المال لا يُفكِّرون في إنفاقه في مصارفه الشرعية.

وقد تنبه ابن قتيبة لهذا ، وساقه في مقدمة كتابه ، مُبينا حال الكتاب ، وماهم عليه من دعة وكسل ، نتيجة عدم تشجيع المسؤولين وذوي السلطات لهم ، ففي عبارته السابقة نراه يقول : (صار العلم عارًا على أهله).

ففي قوله صار أي تحول ، فقد أراد ابن قُتيبة أن يصور العلم بشيء مشين يجلب العار على صاحبه بعد أن كان من قبل غير ذلك ، فقد انقلبت الأوضاع وتغيرت الأمور

، وتبدلت الأحوال ، حتى أنه شبه الزيادة من العلم والاغتراف منه بالنقص ، ثم انتقل في العبارة السابقة إلى قضية أخرى تُصور الواقع المعاصر أدق تصويرمُستخدمًا فيها مفردات معينة وعبارات ذات دلالات إيحائية خاصّة.

فقد بين مدى استهانة الناس بالعلم وازدرائهم للعلماء وانحطاط مكانة العلم عن طريق التشبيه في قوله "صار العلم عارا على أهله" كذلك تحدث عن انقلاب المعايير مع تغير الأزمنة حتى صار الفضل وهو الاستزادة من العلم والاغتراف منه كالنقص ،وكذلك صارت أموال الملوك بدلا من أن تبذل لخدمة العلم والعلماء صارت وقفا على شهوات النفوس والملذات الشخصية ومتع الحياة الزائلة الفانية.

وكان يمكنه أن يختار غير تلك الألفاظ ذات الدلالات العميقة ،ولكنه أراد أن يكون للكلمات التي احتوتها التشبيهات دلا لات ذاتية تسهم في إثراء مضمون النص وفي بيان ما أراد أن يقول.

ثم انتقل في الفقرة ذاتها إلى قضية أخرى تُصوِّرُ الواقع المعاصر، وهي أن أموال الملوك وقفًا فهي لا تُصرف في موارد الخير ، وإصلاح المجتمع ، وإنما جُعلت كالوقف على أمورهم الدنيوية الخاصة ، وهي بذلك لا تنفع صاحبها ، ولا تعود على المجتمع بشيء ، بل تجلبُ لهم الخزي والعار في الدنيا ، والعذاب في الآخرة، وهذه قضية كبيرة وخطيرة لو فُتِحَ بابُ الكلام فيها ما وفّتها كُتُبٌ أو بحوث .

ثانياً-الاجتراء على كتاب الله تعالى وسنة رسوله . والفتوى بغير علم:

الجهلاء وتطاولهم على العلماء والفتوى بغير علم من القضايا المجتمعية المعاصرة ، وهي قضية مهمة تفشَّت في المجتمع أشار إليها ابن قتيبة في مقدمة كتابه عندما قال: "....وأرفع درجات لطيفنا أن يُطالِع شيء من تَقْويمِ الْكواكب ، وَيَنْظُرَ فِي شيءٍ مِن القضاء وحد الْمنطق، ثمّ يعترض على كتاب الله بالطّعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو لا يدري من نقله.. .فقد جهل وظن أنه قد علم ، ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول – صلى الله عليه وسلم– وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصَبَ لِكُلِّ ذلك وعاداه، وانحرف إلى علم قد سلّمه له ولأمثاله المسلمون..."[١]

أشعر بين ثنايا كلماته وجمله غضبًا صارخًا على من يجترئ على كتاب الله وسنة رسوله ، وحُقَّ له ذلك وأكثر ، فهذه هي غيرة العلماء المخلصين للعلم.

فقد علا الأسلاف رحمهم الله تعالى بصون الشريعة وصون أنفسهم عن ابتذال العلم الشرعي والخوض فيما لا يحسنون، «وأجمعوا على أنه لا يحل لمن شدا شيئاً من العلم أن يفتي».[٢] وقدموا أعظم برهان على فضلهم وورعهم، وأنهم لا يخوضون فيما لا ليس لهم به علم .

---

[١] أدب الكاتب ص ٣

[٢] البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٣٠٦.

وإنه في هذه الأزمان ظهر المتجرؤون على الفتيا، والراكبون ظهور العاصفة، ظنوا العاصفة ترفعهم ونسوا أنها قاصفة تُردي! ولو علم المفتي عمن ينوب في فتواه وأيقن أنه مسئول غدا وموقوف بين يدي الله ما اجترأ على الفتوى بعلم ، فكيف حالُ من يُفتي بغير علم؟!

فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعدَّ له عدته، وأن يتأهب له ، ويستشعر عظمته، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصَّدع به، فإنَّ الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه رب الأرباب، فقال تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ} [النساء:١٢٧] وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفا وجلالة إذ يقول في كتابه: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ} [النساء:١٧٦].

ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالًا، فسألوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا."[١]

وقد هاب الفتيا كثيرٌ من الصحابة، وتدافعوها بينهم لِمَا جعل الله في قلوبهم من الخوف والرقابة. فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: "أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يُسأل أحدهم عن المسألة فيردَّها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول"

---

[١] إعلام الموقعين (١/١٠-١١)

« وقد كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يسأل عن المسألة فيضرب لها الأمثال ، ويشبهها بنظائرها ، وكان أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم –إذا سئل أحدهم عن مسألة أفتى بالحجة نفسها ، فيقول : قال الله تعالى كذا ، وقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم –كذا ، أو فعل كذا ، فيشفي السائل ، ويبلغ القائل ، وهذا كثير جداً في فتاويهم لمن تأملها . ثم جاء التابعون ، والأئمة من بعدهم ، فكان أحدهم يذكر الحكم ثم يستدل عليه ، وعلمه يأبى أن يتكلم بلا حجة ، والسائل يأبى قبول قوله بلا دليل ، ثم طال الأمد وبَعُدَ العهد بالعلم ، وتقاصرت الهمم إلى أن صار بعضهم يجيب بنعم أو لا فقط ، ولا يذكر للجواب دليلًا ولا مأخذًا ، ويعترف بقصوره وفضل من يفتي بالدليل ، ثم نزلنا درجة أخرى إلى أن وصلت الفتوى إلى عيب من يفتي بالدليل وذمه ، ولعله يحدث للناس طبقة أخرى لا يُدرى ما حالهم في الفتاوى ، والله المستعان »[١]

فالفتوى الشرعية إذن يجب أن تعتمد على كتاب الله تعالى ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا يحسن بالمفتي أن يبين الدليل ؛ لأن جمال الفتوى وروحها هو الدليل هكذا قال ابن القيم – رحمه الله – تعالى منذ قرون ، وقد حدثت في الناس تلك الطبقة التي تخوف منها ، فراحت تتحيل على النصوص الشرعية بتعليلات وهمية ، وتسوق ما يروق لها ، استسلامًا لضغوط الواقع ، واستعظامًا لبعض الأحكام الشرعية، وتحاول في بعض الأحيان تأييد أقوالها بحجج واهية ، ونصوص باطلة ،لا تقوم بها حجة ولا يستسيغها عقل، وهذا ما نبّه إليه أسلافنا في كتبهم ومنهم ابن قُتيبة ، فقد نعى على من يفعل ذلك وذمه ، وحاول في ثنايا كلامه رده إلى الحقِّ ردًّا جميلا.

---

[١] إعلام الموقعين ٤/ ٢٦٠

ثالثاً: التدرج فى طلب العلم:

التدرج أصل من أصول الإسلام جاءت الشريعة بإقراره كما حصل في تربية الصحابة رضوان الله عليهم، عندما حرمت الخمر، وكيف نزل تحريمها على درجات متفاوتة، والتدرُّج في طلب العلم أُسلوب من أساليب التربية الإسلامية ، وعلى المتعلم التدرُّج في اكتساب المعرفة من السهل إلى الصعب ، والتّرقي في العلوم من الجُزء إلى الكل.

وقد تنبّه ابن قُتيبة إلى هذا ، ونبَّه إليه في مقدمة كتابه عندما وصف ذلك وصفًا هندسيًّا بارعًا بألفاظه فقال " أن السّقفُ لا يكونُ إلا على حائِط، وأن الحائط لا يقوم إلا على أُس ، وأن الأس لا يقوم إلا أصل ، ثم ابتدأ في العمل بالأصل ، ثم بالأس ثم بالحائط..."[١]

فينبغي للمتعلِّم أن يولِيَ هذا الأمر اهتمامه، فلا يتلقى العلوم جملةً واحدة، ولكن يبدأ بالتدرج من المهم إلى الأهم، وقد أشار الإمام ابن مفلح – رحمه الله – إلى رأي الإمام أحمد بأن يبدأ الصغير أولاً بتعلُّم القرآن؛ كي يتعود القراءة، فتكون كالمفتاح لغيرها: "وأما الصغير فيقدم حفظ القرآن؛ ولأنه عبادة يمكن إدراكها والفراغ منها في الصِّغَر غالبًا ".[٢]

وقد أشار ابن مفلح إلى أهمية هذا التدرج في اكتساب المعرفة، فيما نقله عن صاحب النهاية قال: إن من العلم جَهلاً "قيل: هو أن يتعلم ما لا يحتاج إليه؛ كالنجوم، وعلوم الأوائل، ويدَع ما يحتاجه في دِينه من علم "؛ فهو هنا لم يُنكِر تعلُّمَ علم النجوم وعلوم

---

[١] مقدمة أدب الكاتب ص ٥.

[٢] المقدسي، محمد بن مفلح. الآداب الشرعية. (مرجع سابق). ج٢ ص.٢٠٠

الأوائل، إنما أنكر الطريقةَ التي استخدمها المتعلم؛ لأنه لم يتدرج في العلوم من الأهم إلى المهم.[١]

وكذلك فقد أشار ابن مفلح المقدس– رحمه الله – إلى عدم الاستعجال في أخذ العلوم بلا تدرج، فقال: "قال الخلال في الأدب: كراهة العجَلة، ورُوي عن عبدالله بن أحمد: حدثني أبي، ثنا إسحاق بن عيسى الطباع، سمعت مالك بن أنس عاب العجَلة في الأمور، ثم قال: قرأ ابن عمر البقرة في ثمان سنين ."[٢]

وبيّن ابن قُتيبة أن من لم يتأن في طلب العلم ويتعجل فيه هو والجاهل سواء" حيث إنه جهل وَظَنَّ أنه علم ، فهاتان جهالتان ؛ ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجب بنفسه ، الزاري على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياهُ الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته، وفي علوم العرب ولُغاتِها وآدابها فنصب لذلك وعاداه[٣] ، وانحرف عنه إلى علم قد سَلّمَه له ولأمثاله المسلمون ، وقلّ فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسمٌ يهول بلا جسم ؛ فإذا سمع الغُمْرُ [٤]

---

[١] المرجع السابق). ج٢. ص١٩٥

[٢] المرجع السابق). ج٢. ص١٩٥

[٣] أي : قصد له ، وتجرد من كل ما يشغله عنه ليكيد له ويزيفه.

[٤] الغمر بالضم : الرجل الذي لم يجرب الأمور . هامش أدب الكاتب ص ٣

والحدث الغِرُّ قوله : الكون والفساد، وسَمْعُ الكيانِ [١]، والأسماء المفردة، والكيفية والزمان والدّليل ، والأخبارُ المُؤلّفة راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كُلُّ فائدة ، وكُلُّ لطيفة ، فإذا طالعها لم يخل منها بِطائِل..."[٢].

رابعًا : مراعاة اليسر والسهولة وعدم التشدق بالكلام :

لابد للإعلامي أيًّا كان مكانه سواء أكان معلّمًا في مدرسة ، أو كاتبًا في صحيفة ، أو مذيعًا في إذاعة مسموعة كانت أو مرئية ...أن يختار من الأسلوب ما يناسب عقلية المتلقي من يُسر وسهولة ووضوح، مع مراعاة العرض الشائق الممتع .

فقد نهى رسولنا – صلى الله عليه وسلم – عن التقعر والتشدق بالكلام،عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "هلك المتنطعون. قالها ثلاثا"[٣]

قال تعالى :﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ سورة ص آية ٨٦ لقد كان هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– أكمل الهدي في الدعوة والخطابة، والتعليم،

---

[١] (سمع الكيان) كتاب لأرسطو ، والكيان الطبيعة ، وهي كلمة فارسية الأصل ، ومعنى (سمع الكيان) قبل أن تكون علمًا اسمع ما يكون، هكذا قال شُرّاح الكتاب، والذي يبدو لي أن (سمع) فعل ماض معطوف على الذي قبله ، في قوله "سمع..." الكون والفساد–إلخ ، وقد أظهر الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد ، مدير الجامعة المصرية الآن (مايو ١٩٣٥) كتاب أرسطو باسم (الطبيعة)، كما أظهر له كتاب (الكون والفساد) فاسم الكتاب إذن (الكيان) أي الطبيعة كما علمت، هامش أدب الكاتب ص ٣ ، ٤.

[٢] أدب الكاتب ص ٣، ٤

[٣] رواه مسلم (العلم ٢٦٧٠) ، وانظر : تفسير ابن جرير (١٠ / ٦٠٨)

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الأمور كلها، ورُوِيَ عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "كان كلام رسول الله- صلى الله عليه وسلم -كلاما فصلاً يفهمه كل من يسمعه"، وقالت: "كان يحدثنا حديثًا لو عده العاد لأحصاه"، وقالت: "إنه لم يكن يسرد الحديث كسردكم" "[١]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها))؛[٢] إسناده صحيح.

قال في النهاية: "هو الذي يتشدَّقُ في الكلام، ويفخم لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفًّا [٣]

عن جابر -رضي الله عنه -أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم -قال: ((إنَّ من أحبكم إلي، وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون...)) [٤] الحديث."

---

[١] رواه البخاري (المناقب – ٣٥٦٧) ومسلم (فضائل الصحابة – ٢٤٩٣) واللفظ للبخاري

[٢] رواه أحمد (٢ / ١٦٥)، وأبو داود (الأدب – ٥٠٠٥)، والترمذي (الأدب – ٢٨٥٢)، بإسناد حسن، وقال الترمذي: حسن غريب.

[٣] النهاية ٢ / ٧٣

[٤] رواه أحمد ٤ / ١٩٣ من طريق مكحول عن أبي ثعلبة الحشني ، ورواه الترمذي (البر – ٢٠١٨) من طريق مبارك بن فضالة حدثني عبد ربه بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر به ، ومبارك بن فضالة صدوق يدلس ، لكن هذا صرح بالسماع ، وقال الترمذي : حسن غريب.

قال ابن الأثير: الثرثار الذي يكثر الكلام تكلُّفًا وخروجًا عن الحق، والثرثرة كثرة الكلام وترديده، والمتشدق المتوسع في الكلام من غير احتياط واحتراز، ومثل المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم... والمتفيهق الذي يتوسع في الكلام ويفتح فاه به، مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع [١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هلك المتنطعون)) قالها ثلاثا. [٢]

إن مما تمجه الأسماع، وتنفر منه القلوب التكلف في الكلام، والتنطع فيه، فعلى الأديب والمعلم ، والإعلامي أن يترفع عن هذه الطريقة المنهي عنها شرعًا ، ومن ذلك قلقلة الحروف إلى حد التكلف والتصنع، وتجويد بعض العبارات وترتيلها كأنه يرتل القرآن العظيم، ومن ذلك التكلف في تقليده لبعض الخطباء المعروفين، وانتحال طريقتهم في الخطاب، وأسلوبهم في تفخيم الكلام أو ترقيقه، أو مد آخر الجمل،وليترك الكلام يخرج على سجيته، والألفاظ تخرج على السليقة، ولا يستكره الألفاظ ويحشرها في غير مواضعها،قال الجاحظ: "ومتى كان اللفظ كريمًا في نفسه، متخيرًا في جنسه، وكان سليمًا من الفضول بريئًا من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول،

---

[١] النهاية ٣ / ٤٨٢

[٢] رواه أحمد – (٤ / ٩٨) من طريق جابر بن عمرو بن يحيى – ولم أجده – عن معاوية رضي الله عنه به ، وانظر : الآداب الكبرى (٢ / ٨٩

وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب... ولم أجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معانِيَ مدخولة، ولا طبعا رديًا، ولا قولاً مستكرهًا ".[١]

ومن التشدق في الكلام أن يكون ذا عبارات مُنَمَّقَة، وجملاً إنشائية فارغة من المحتوى، فليس وراء تلك الكلمات الرنانة موضوع أو طائل يخرج به المستمعون، لا موضوعا تربويًّا، ولا اجتماعيًا، ولا فقهيًا يخرج منه المتلقي بفائدة.

يقول ابن قُتيبة وهو يوصي من رام أدبًا رفيعًا : " ونستحب له أن يدع في كلامه التقعير والتقعيب[٢] ، فهذا وأشباهه كان يُستثقل والأدب غضٌ والزمان زمان ، وأهله يتحلَّوْن فيه الفصاحة ، ويتنافسون في العلم، ويرونه تلون المقدار في دَرَكِ ما يطلبُون ، وَبُلُوغِ ما يُؤَمِّلون، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال، وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: "إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُون المتشدقون"[٣] .

ولذلك نرى أن ابن قتيبة اعتمد في مقدمته الألفاظ السهلة السائرة ،ونادرا ما لجأ إلى الألفاظ الغريبة والوحشية، ولارتباط المقدمة بالغاية التعليمية ،وهي تعليم ا لكتاب الطريقة

---

[١] البيان والتبيين ٢ / ٣ – ٤

[٢] التقعير : الانتهاء إلى قعر الشيئ ..تقول قعر الرجل إذا نظر فيما يغمض من الرأي حتى يستخرجه ، كأنه إذا تكلم بكلامٍ غريبٍ عويص احتيج إخراج معانيه كما يحتاج إلى إخراج ما في القعر، والتقعيب مثل التقعير ، ومعناه التعمق ينظر هامش أدب الكاتب ص ١٢، ١٣.

[٣] أدب الكاتب ١٢، ١٣.

المثلى في الكتابة قصد ابن قتيبة الأداء الواضح الذي ينم عن علم ومعرفة ،وتتراوح ألفاظه بين المحسوسات ،والألفاظ الدالة على الأشياء المجردة.

وذكر ابن قتيبة أن وحشي الكلام والغريب المتصف بالتعقيد مما يستقبح عند الكتاب ،كما جعل سهولة الألفاظ نابعة من مستعمل المعاني ،ويبدو أن مستعمل الألفاظ دليل على سهولة المعاني ،وذلك لأن المعنى قد يكون سهلا معلوما ولكن يعبر عنه بألفاظ غريبة مستهجنة فتكون صعبة المعنى مستثقلة في النفس .

فعندما يكون حديثه عن الأفكار تزيد فيها نسبة المعنويات حيث تضغى الانفعالات النفسية ،أما عندما ينتقل إلى سرد وقائع حدثت فإن الألفاظ المجردة تصبح هي السائدة.

القضية الخامسة: انتشار روح الدُّعابة المحمودة في الكلام :

إسلامنا دين عظيم لا يُصادر الفطرة البشرية ، والدّعابة سلوك اجتماعي يرتبط بالإنسان دون غيره من المخلوقات ، وإسلامنا يُرحبُّ بكل ما يجعل الحياة طيبة باسمة ، وأسوتُنا في ذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكان يمزح ولا يقول إلا حقًّا ، وقد دعا ابن قُتيبة إلى ذلك في مقدمة كتابه وذلك عندما ظهرت شخصيته المنطقية ، فكان لا يقول شيئًا إلا ومعه الأدلة والبراهين حيث يقول :"كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم –ولنا فيه أُسوةٌ حسنة يمزح ولا يقول إلا حقا فقال :(إن الجنة لا يدخلها عجوز)[1]،وكان في علي عليه السلام دعابة، و كان ابن سيرين يمزح ويضحك حتى يسيل لعابه ،وسئل عن رجل فقال توفى البارحة ،فلما رأى جزع السائل قرأ{اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

[1] رواه الترمذي، وصححه الألباني بشواهده، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي ،وهو حديث حسن.

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون}[الزُّمَر:٤٢]،[١]

نرى أن ابن قتيبة هنا استدل بعدة أدلة رتبها ترتيبا منطقيا ،حيث بدأ بالاستدلال بقصة مزاح الرسول –صلى الله عليه وسلم–،ثم بالإشارة إلى علي –رضي الله عنه –،ثم قصة ابن سيرين وهو من التابعين وهكذا ،وهو في كل هذا أراد أن يجعل من هذا الأمر وهو المزاح أو الدعابة الراقية التي تُذهب الملل ، دون ابتذال أو انحطاط ديدن الكُتَّاب ومنهجا لهم في كتاباتهم ،وهو في هذا يريد من الكتاب أن يجعلوا ذلك منهجهم في كتاباتهم وأن يقتدوا به في ذلك، ولذلك نراه يقول بعد ذلك "...فهذا وما أشبهه مَزْحُ الأشراف والمروءات"[٢]

القضايا كثيرة ومتنوعة في مقدمة هذا الكاتب المبدع – يضيق بها الزمان والمكان هنا – فقد ختم كلامه بقوله :"هذا منتهى القول فيما نختاره للكاتب ؛ فمن تكاملت له هذه الأدوات وأمدّه الله بآداب النفس من العفاف ، والحلم والصبر، والتواضع للحق ، وسكون الطائر ، وخفض الجناح فهذا المتناهي في الفضل ، العالي في ذُرى المجد، الحاوي قصب السبق، الفائز بخير الدارين إن شاء الله تعالى"[٣]

---

[٢] أدب الكاتب ص ١٢

[٣]أدب الكاتب ص ١٦

والصفات التي ذكرها ابن قُتيبة في عبارته الختامية لمقدمته هي المقصد الأسمى الذي أراد أن يقوله ويؤكِّد عليه من البداية ، وهذه الصفات هي: (العفاف والحلم والصبر والتواضع للحق ، وسكون الطائر وخفض الجناح) وجميعها داخلة في عموم آداب النفس ، وخص هذه الأوصاف لمكانها السامي من الشرف والفضيلة ، وهو بذلك يضع لنا القواعد والأصول والثوابت التي يجب أن يكون عليها الألمعي حتى يقترب من الربوات في حرفته وصنعه سواء أكان إعلاميا أو معلما أو أديبا أو غير ذلك ، وهي صفات أخلاقية ومهنية أكثر منها حسية وصفية ، وشرط لها عون الله وإمداده وتوفيقه ، اللهم نسألك التوفيق والسداد والهدى والرّشاد.

خاتمة

خاتمة:

وبعد هذه الجولة القصيرة الممتعة في رحاب مقدمة كتاب من الكتب التراثية القيمة ، ذات الموضوعات الهادفة نستطيع القول أن هناك نظرة تاريخية مجحفة ومتطرفة ، ترى أن الماضي شيئًا مضى وانتهى ، وليس الأمر كذلك ، فمن لا ماضي له لا حاضر له، ويندرج تحت هذا كل الماضي بما فيه من عراقة وأصالة ، وتراث.

وتراث الأمة العربية والإسلامية تراث مشرف ، وزاخرُ بكل أنواع العلوم والمعارف والفنون ، وتراثُ أيّ أمَّة هو تاريخُها وكيانها، وأمَّة بلا ماضٍ أُمَّة بلا حاضر، وبلا مستقبل، والحِفاظُ على التراث وعلى التاريخ هو الحِفاظ على الكيان والهُويَّة، على الخُصوصيَّة التي منحتْنا وجودَنا بوصْفِنا أمَّة، هو الحفاظ على السبيل الذي يضمن استمرارَنا ونهضتَنا مِن غفوتنا.

التوصيات:

لا بد من توعية الجيل الناشئ بأهمية التراث وسهولته ، وغرس قيم المحافظة عليه ، وفهمه واستيعابه عن طريق المعاودة وترديد النظر ، ومذاكرته ، ومحاولة الوصول إلى معانيه ومراميه ، فهو يروم إلى أشياء ثمينة تطلب منا محاولة الكشف عنها ، فهي علم عُلماء، وخلاصة أفكارهم وتجاربهم وثقافتهم واطلاعهم على علم من سبقهم ، وتستحق منّا بذل المجهود والمشقة حتى يكون لكلامنا مذاق وطابع يميزه وهذه هي المُتعة في قراءة التراث.

تراثُنا يحتاج في قراءته إلى دقة وتدبر وتفكر وتمعن وجُرأة ؛ لاستخراج ما فيه من كنوزٍ ونفائِس ، وهذه هي سمات العمل الجيد ويُؤكّد الإمام عبد القاهر الجرجاني هذا بقوله: " ما شرُفت صنعة ، ولا ذُكر بالفضيلة عمل إلا لأنهما يحتاجان من دقّة الفكر ولطف النظر ونفاذ الخاطر ما لا يحتاج إليه غيرهما"[١].

توجيه الباحثين والباحثات لدراسة مقدمات الكتب ، فهي ذات لغةً خاصة تزود الباحث بالمعرفة ، وتعلمه كيف يصنع المعرفة ، و يتأتى ذلك عن طريق تذوق عبارات العلماء وفهمها وتحليلها، واستنباط ما فيها من كنوز ونفائس.

---

[١] أسرار البلاغة ص ١٤٨

عقد ندوات ومؤتمرات علمية للتعريف بكتب التراث ، على أن يُتناول في كل مناسبة علمية ، عَالِمٌ من علمائنا الأوائل للتعريف به وبكتبه ، ومدى إفادة المجتمع المعاصر من نتاجه الفكري ، ولعل ذلك يُذيب الفجوة ، والجفوة التي حدثت بيننا وبين تراثنا العربي.

فهرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت كتاب اليكتروني من المكتبة الشاملة.

- الآداب الشرعية لمحمد بن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة ١٤١٩هـ١٩٩٩م.

- أدب الكاتب تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان

-أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

-إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

-اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة مكتبة الرشد

- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليموسي محمد بن عبد الله بن محمد بن السيد ، تحقيق مصطفى السيد حامد عبد المحسن، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٦٦.

- إنباه الرواة على إنباه النحاة للقفطي تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم –دار الكتب المصرية–١٩٥٥م

-البحر المحيط في أصول الفقه لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ت ٧٩٤هـ، الناشر دار الكتبي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ١٩٩٤م.

- بغية الوعاة للسيوطي تحقيق ممد أبي الفضل إبراهيم مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٦٥م .

-تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني ،د/شوقي ضيف،دار المعارف ١٩٩٦م

-تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر(المقدمة)،

-تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ،طبعة القاهرة ١٩٤٨م .

-التراث ومشكل المنهج ، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية لمحمد عابد الجابري ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- تفسير رسالة أدب الكاتب للإمام أبي القاسم عبد الرحمن ابن إسحاق الزجاجي ت ٣٤٠هـ،حققه وعلق عليه د/عبد الفتاح سليم ص٨,٧ القاهرة -معهد المخطوطات العربية - ١٤١٤هـ-١٩٩٣م

- تهذيب الأسماء واللغات للنووي ت ٦٧٦هـ عنيت بنشره وتصحيحه والتعلق عليه ومقابلة أصوله ، شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية بطلب من دار الكتب.

- الخطاب العربي المعاصر، محمد عابد الجابري ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دار الطليعة ، بيروت، لبنان، مايو ١٩٨٢م،ص:٣٧.

- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر طبعة مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م.

-سير أعلام النُبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، الطبعة الثالثة عشر

شرح أدب الكاتب للجواليقي ،الطبعة الأولى ،تحقيق د.طيبة محمد بدوي ،كلية الآداب ،جامعة الكويت ،١٩٩٥-١٤١٥هـ

-طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة١٩٧٣م.

-قاموس دار العلم الفلكي لمؤمن عبد الأمير – بيروت – لبنان – دار العلم للملايين ٢٠٠٦م

-قطوف أدبية ودراسات نقدية في التراث العربي ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م.

-كشف الظنون لحاجي خليفة -مكتبة المتنبي – بغداد.

-لسان اللسان لابن منظور، تهذيب لسان العرب، هذبه بعناية: المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، تحت إشراف الأستاذ عبد أحمد علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م

-المبسوط للقاضي اسماعيل بن إسحاق الجهضمي المالكي ت ٢٨٢هـ.

- مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الخزرجي بن منظور ، المطبعة السلفية بمصر.

- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجُرجاني ص ٦٨، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٨٨م.

- مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، المطبعة الأدبية ١٩٠٠، دار الكتاب اللبناني ١٩٦١م.

-مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي ١٤٠٦هـ،١٩٨٥م..

-المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦

-وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان لابن خلكان أ بو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت.